الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

سيكولوجيّة الطّلاق في الإسلام

بين كراهية الشرع وضرورة الواقع

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEE
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

منذ أشهر مضت، في مجلس الأسرة الهادئ، جلس أحمد مع والده الذي كان ينصحه بحكمة الكبار: "يا بنيّ، الزواج مسؤوليّة عظيمة وأمانة ثقيلة، لا تختر بعينيك فقط، بل انظر بعقلك أولاً، ابحث عن الدين والخُلق قبل الجمال الزائل، فالجمال يذبل والمال يفنى، لكنّ الأخلاق الحسنة تدوم وتزداد جمالاً مع الأيام."...

وفي بيت مجاور، كانت أمّ أمل تحتضن ابنتها وتقول لها: "يا حبيبتي، الزواج ليس مجرّد فستان أبيض وحفلة جميلة، بل حياة كاملة ستقضينها مع شريك حياتك، فانظري إلى دينه وأخلاقه، وتأكّدي من قدرتكما على بناء بيت قوامه التفاهم وعماده الاحترام."...

لكنْ للأسف، فكلٌّ من أحمد وأمل قد اختار بعاطفته لا بعقله، فأحمد قد انبهر بجمال أمل ومظهرها الأنيق، وأمل أُعجبت بوسامته ووضعه الاجتماعي المتميّز، فتجاهلا الاختلافات الجوهريّة في القيم والتّفكير والالتزام الدينيّ الحقيقيّ، واعتقدا أنّ الحبّ وحده كافٍ لتذليل كلّ العقبات...

واليوم، تجلس أمل أمام المرآة في فستان زفافها الأبيض، عيناها تلمعان بالإعجاب والانبهار، ولكنْ في أعماق قلبها تتجاهل همسات الشّكّ التي تذكّرها بكلمات أمها، لقد اختارت بعواطفها فقط، رأت في أحمد الرجل الوسيم الناجح، لكنها لم تنظر إلى ما وراء المظاهر...

وبعد خمس سنوات، في الغرفة نفسها التي شهدت فرحة الزّواج، تجلس أمل وأحمد على طرفي الأريكة، صمت ثقيل يملأ المكان، فقد ظهرت حقيقة الاختلافات الجوهريّة بينهما، واكتشف كلاهما أنّ ما ظنّاه حبًّا لم يكن سوى إعجاباً عابراً، وأنّ المظاهر البرّاقة لا تكفي لبناء حياة مشتركة، وأنّ وعودهما لبعضهم البعض باتت كمواعيد عرقوب لا ترى لها على أرض الواقع وجوداً، ولا نفع يرتجى منها، فقد تبخّرت كما تبخّر الحبّ في الهواء، فقد كانت الكثير من الكلمات القاسية تتردّد في الهواء: "لم أعد أطيقك"، "لا يمكننا الاستمرار هكذا"، "ربّما كان الطلاق هو الحلّ الوحيد"...

فكيف تحوّل الحبّ إلى نفور؟ وهل كان الاختيار خاطئاً من البداية، أم أنّ المشكلة في عدم معرفة كيفيّة رعاية هذه العلاقة وحمايتها من عواصف الحياة؟ وهل فعلاً الطّلاق هو الحلّ الوحيد، أم أنّ هناك طرقاً أخرى لإنقاذ ما تبقّى من هذا البيت؟

من هنا يتّضح أنّ هناك أساساً لا غنى عنه لتحقيق معادلة الزواج، وهو الاختيار الصحيح القائم على أسس دينيّة، وفي ذلك يقول النبيّ الكريم عليه الصّلاة والسّلام: "تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"، فهذا الحديث ليس مجرّد إرشاد للرّجال، إنّما منهج شامل للاختيار السّليم يطبّق على كلا الطرفين، فالزواج الناجح يقوم على وجود التّقوى في قلب الطرفين، وثبات الأساس الدينيّ السليم، وليس المقصود هنا أداء الشعائر والعبادات، إنّما المقصود وجود منظومة أخلاقيّة متكاملة تشمل الصّدق والأمانة والرّحمة والصّبر والحلم، فالمتديّن حقاًّ – رجلاً كان أو امرأة- يعرف أنّ الزواج عبادة وميثاق غليظ، وأنّ الشريك أمانة في عنقه....

والمرأة كما الرجل- إنْ كانا من أصحاب التّقوى - وجب عليهما أنْ يتقيّا اللّه في أسرهما وأولادهما، وأنْ يتحلّيا بالصّبر عند الشدائد والمشاكل، فيكون كلّ منهما قادراً على فهم حقوق الزوج وأداء واجباته، ويسارعان لإصلاح ذات البين عند الخلاف بدلاً من التسرّع في التّفكير بالطّلاق، فالدّين يضمن حسن الخلق والتّعامل، فالجمال يضمحلّ، والمال قد يفنى، والنّسب قد لا يفيد، لكنّ حسن الخلق الذي يغذّيه الدّين هو الذي يدوم ويجعل الحياة الزّوجيّة سعيدة، فوضع الأساس الصحيح من البداية هو ما يضمن بناء أسري قويّ، إذ إنّ البيوت المتماسكة هي التي تبنى على أساس الدين والأخلاق، أمّا إذا انتفى هذا الأساس، فإنّ الانكسار الفعليّ يبدأ منذ لحظة وضع الأساس المزيّف، لا عند النّطق بكلمة الطّلاق....

فالأسرة في الإسلام ليست مجرّد رابطة قانونيّة، ووثيقة مدنيّة، إنّما استثمار حقيقيّ لبناء المجتمعات تبدأ من تأسيس أسرة على أسس دينيّة قوامها التّفاهم والمشاركة والتّواصل الجيّد، بحيث يكون نتاجها الألفة والمودة والرحمة والسند المتبادل بين الزوجين، فهذا البناء المتين يتطلّب تعلّم مهارات التواصل الفعّال وإدارة الخلافات بحكمة، فالزّواج النّاجح ليس غياب المشاكل إنّما القدرة على اجتيازها معاً كحلفاء لا كخصوم....

ومن ثمّ فإنّ الحياة الزوجية في بدايتها تحتاج إلى رعاية وصبر وحكمة، فكلّ طرف يأتي بعاداته وطباعه وتربيته، وهذا التنوّع يمكن أنْ يكون مصدر إثراء أو مصدر صراع، والفيصل هو طريقة التّعامل معه، فهذه الفترة الأولى هي فترة التكيّف، وتعدّ مرحلة حرجة جداً في عمر الزواج، إذ فيها يكتشف كلّ طرف الطّرف الآخر بعيداً عن

رتوش المواعيد والخطبة، وهنا تظهر الحاجة الماسّة للصّبر والتفهّم، وإدراك أنّ التّغيير والتّأقلم عمليّة تدريجيّة لا يمكن أنْ تحدث بين ليلة وضحاها....

لذا فقد وجب على كلا الطرفين أنْ يتذكّرا بأنّهما حلفاء، لا أعداء، وأنّ أيّة مشكلة يمكن حلّها معاً، دون تحوّل النّقاش لصراع، ولذلك وجب اختيار وقت النّقاش المناسب، بعيداً عن أعين الأبناء والناس، وبهدوء دون اندفاع وتعصّب، وباستخدام عبارات وجمل تعزّز من الحوار الإيجابيّ، وبالاستماع الحقيقيّ للطرف الآخر، وتجنّب التجريحات والإهانات والتشتيت في المواضيع واجترار الماضي ليكون حاضراً في كلّ نقاش جديد..

وهنا وجب على الزوجين أنْ يدركا أنّ المشاكل في هذه المرحلة طبيعيّة ومتوقّعة، وكلّ مشكلة ولها حلولها، ولا يجب أنْ تُفسّر بأنّها فشل في الزواج أو عدم توافق، بل هي فرصة للتعلّم والنموّ معاً، فقد تكون هذه المشاكل مقترنة بالضغوط الاقتصادية وقلّة الدخل، وسوء إدارة الميزانية، ولكنّ الحلّ يكمن في التخطيط المشترك والشفافية والقناعة، وقد تكون المشاكل سببها تدخّل الأهل في شؤون الزوجين الخاصّة وحياتهما الجديدة، وهنا الحكمة تقتضي وضع حدود واضحة للأهل مع الحفاظ على الاحترام والمحبة والبرّ، وقد تكون أسبابها نابعة عن الاختلاف في الشخصيات والاهتمامات، وهنا وجب التذكّر بأنّه ليس المطلوب التشابه التّام بل التّكامل والتفهّم، والبعد عن محاولة تغيير الطرف الآخر بالقوّة، وضرورة قبوله وتقدير اختلافه، وقد تنشأ هذه المشاكل نتيجة قلّة التّواصل الصادق والعميق، ممّا يؤدي إلى تراكم المشاعر السلبية وسوء الفهم، فكثيرون يظنّون أنّ الحبّ كافٍ للتّفاهم، ولكنّ ذلك ليس صحيحاً فالصّواب أنْ يتعلّم الزوجان مهارات التواصل والاستماع والحوار..

فالعلاقة الزوجيّة كالحساب البنكيّ العاطفيّ، إنْ امتلأت بالإهانات والمشاعر السلبية سحبت من رصيد الزواج ونقصت حصيلته، وإنْ امتلأت بالكلمات الطيبة والاهتمام واللحظات الجميلة زاد الرصيد وازدهر، وفي مجتمعاتنا المعاصرة ظهرت العديد من الإحصائيات التي تظهر إفلاس بنوك وأرصدة العلاقات الزوجيّة، وهذا الإفلاس يعكس عمق استفحال حالات الطلاق في المجتمعات على اختلافها، خاصة في دول الوطن العربي، ففي السعودية وصلت نسبة الطلاق إلى 35%، وفي الإمارات إلى 46%، وفي الكويت تراوحت النسبة بين 40-60% في السنوات الأولى من الزواج، وفي مصر 25% منها 40% في السنة الأولى، وفي الأردن 28%.،

فهذه الأرقام وغيرها الكثير، تعكس أزمة حقيقيّة تستدعي التوقّف والتأمل، خاصّة أنّ 50% من حالات الطلاق تحدث في السنوات الأولى، ممّا يشير إلى ضعف في الأسس أو في مهارات إدارة بدايات الحياة الزوجيّة....

وعلى الرّغم من أنّ الإسلام أباح الطلاق، إلاّ أنّه وصفه بأنّه "أبغض الحلال إلى اللّٰه"، فهذا التعبير يحمل معاني عميقة عن طبيعة الطلاق كحلّ استثنائي لا كخيار أول، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 229]، فالخطاب هنا موجّه للطرفين معاً، فالمسؤولية مشتركة في بناء الأسرة والمحافظة عليها، وكما قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: "إنّ المرأة خُلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإنْ استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإنْ ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها"، فهذا الحديث لا يقلّل من شأن المرأة، بل يعلّمنا الواقعية في التّعامل مع الطبائع البشرية، فعندما يصل الأمر إلى "الكسر" - أي التدمير النفسي والعاطفي - فإنّ الطلاق يصبح الحلّ الأرحم للطرفين، فإنْ لم يسر البنيان كما يستوجبه الشرع، خاصّة بعد استنفاذ السبل كلّها، من الوعظ والنصح بالحكمة والكلمة الطيبة والتذكير باللّٰه والآخرة وبأهمية الأسرة، ومن ثمّ بالهجر في المضاجع وإظهار عدم الرضا دون إيذاء،﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: 34]، وآخر السّبل بالتحكيم﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: 35]، هنا تأتي خطوة الطلاق كآخر الحلول....

وكلّ ما سبق من خطوات مردّه أنّ فاتورة الطلاق باهظة السّداد على المجتمع بأكمله لا على الزوجين وحسب، فالطلاق ليس مجرد إجراء قانونيّ، إنّما هو زلزال يهزّ كيان الأسرة بأكملها، ويمتدّ للمجتمع بكامل أفراده، وأهمّ أفراده، ألا وهم الأطفال فهم الأكثر تضرراً، وهم الضحايا الأبرياء الذين يدفعون ثمن قرارات الكبار، فيعانون من اضطرابات نفسية وعاطفية كالخوف والاكتئاب والقلق وانخفاض تقدير الذات والشعور بالذنب، وقد يصبح الطفل عدوانياً أو انطوائياً، وتظهر عليه مشاكل أكاديميّة وانخفاض في التحصيل الدراسيّ، كما يواجه صراع الولاء عندما يضطر لاختيار جانب أحد الوالدين، ويضطرب لديه مفهوم الأسرة ممّا يؤثّر في تصوّره للعلاقات المستقبلية...

وهناك الآثار التي تلحق بالمطلّقين نفسيهما، فحتّى لو كان الطّلاق الحلّ الأمثل، فهو يقع ومعه مشاعر حزن عميق وخسارة وفشل ووحدة وغضب، وتزداد معه الضغوط الاقتصاديّة خاصّة للمرأة غير العاملة، ويرزح العبء الاجتماعي بثقل عليهما، إذ قد يواجه المطلّقون نظرات مجتمعيّة أو ضغوطات من الأهل، فالمجتمعات تنظر للمرأة الطّالق بأنّها فاشلة، وهذا ظلم كبير، كما يحدث تغيير في الأدوار والمسؤوليّات، إذ قد يضطرّ أحد الطرفين للعب دور مزدوج...

ولكون الأسرة لبنة المجتمع، فإنّ انتشار حالات الطلاق يؤدي إلى تفكك البنية الاجتماعيّة وضعف التماسك في المجتمعات، وتزداد الأعباء الاقتصادية على مؤسّسات الرعاية الاجتماعيّة، وترتبط بعض الظواهر الاجتماعيّة السلبيّة بانتشار الطلاق كجنوح الأحداث والإدمان والانحرافات الأخلاقيّة...

فالمسؤولية كلّ المسؤولية، للحدّ من هذه الآثار تقع على عاتق شباب اليوم، إذ يتوجّب عليهم التّمسّك بالدين وكتاب اللّه، ونبذ كلّ ما من شأنه إفساد نجاح الزواج من سلوكيّات وعادات ضارة، والقيام بدور كلّ واحد منهم في منع حدوث هذه الظاهرة بشكل مضطّرد..

فعلى مستوى الأفراد، فإنّ هناك عدداً من برامج الإعداد للزواج قد وجب عقدها للمقبلين على الزواج، بحيث تشمل دورات تأهيليّة قبل الزواج، وتدريباً عملياًّ ومهارياًّ على حلّ النزاعات، وتعزيز الثقافة الزوجيّة، وتعلّم مهارات التّواصل الفعّال، وبرامج للمتزوجيّن تقوم على فكرة التوعية بالفهم المشترك للحقوق والواجبات الشرعيّة، وتقديم الاستشارات الأسريّة كاللجوء للمستشارين قبل اتّخاذ قرار الطلاق، وعقد جلسات مصالحة عائليّة في حالة وجود خلافات قد توصل للطّلاق...

وعلى مستوى المجتمع والحكومات، يمكن القيام بتقديم دعم مالي للشباب من خلال تيسير تكاليف الزواج، وتقديم منح سكنيّة للشباب، وتوجيه توعية إعلاميّة للأفراد والأسر، كبرامج توعوية عن أهميّة الأسرة، ونشر نماذج ناجحة للزواج، وتفعيل دور المؤسّسات المجتمعيّة من مراكز الإصلاح الأسري، وخطوط مساعدة للطوارئ الأسرية...

فإنْ وصل الأمر للطلاق بعد استنفاد الحلول كافّة، فقد وجب أنْ ننظر إليه كرحلة شفاء لا انكسار، فالمطلّق رجلاً كان أم امرأة، وجب عليه أنْ يرى في الطلاق أولى خطوات طريقه نحو الشفاء من جرح كان طرفاً في إحداثه، يكفيه جلداً لذاته، وعليه السير نحو نجاته بخطوات واثقة لا تردّد فيها، فالطلاق ليس نهاية رحلة،

إنّما بداية محفوفة بالتحدّيات، بداية تحتاج منّا الوعي والفهم والدعم والتمكين لا للمرأة المطلقة وحسب، إنما للأسرة بأكملها خاصّة الأطفال، فهناك حاجة لتأسيس أرضية جديدة لحياة جديدة....

وعلى الرغم من كلّ التحدّيات التي ستظهر، إلاّ أنّ الحياة الزوجية السعيدة ممكنة ومتحقّقة في ملايين البيوت حول العالم، والسرّ يكمن في الاختيار المدروس منذ البداية، والأساس المتين على قيم ومبادئ إسلاميّة، وتعلّم مهارات التّواصل والإصلاح، والصّبر والحكمة في مواجهة التحدّيات، والاستعانة باللّٰه وطلب التوفيق منه، والاستثمار المستمرّ في العلاقة داخل حدود شرعيّة وضعها اللّٰه لحماية النّسل البشريّ من أيّة انحرافات قد تنعكس عليهم جسدياً وروحياً، لذلك فقد كان من البديهيّ أنْ تنتهي أيّة علاقة خارج هذا الإطار الشرعيّ بالفشل المحتوم، وتكون تبعاتها على الأفراد والمجتمعات خطيرة عميقة لا تحمد عقباها....

فالزواج في واقعه.... رحلة طويلة فيها منعطفات ومطبّات، ولكنّها قد تكون أجمل رحلات الحياة إذا ما تسلّح الزوجان بالحبّ والمودّة والحكمة والصّبر والإيمان....

اللهمّ ألّف بين قلوب المتزوجين، وأصلح ذات بينهم، واجعل بيوتهم عامرة بالمودة والرحمة، وإنْ كان الفراق خيراً لهم، فاللهم اجعله فراقاً بإحسان، واكتب لكلّ منهما السعادة والسكينة والعوض الجميل، إنّك سميع مجيب الدعاء....